

الكرامة الإنسانية



«إنَّ الكرامة الإنسانية ترتبط في المفهوم الإسلامي بالحرية والمسؤولية، فهي ليست كرامة بدون دلالة عملية تنعكس في سلوك الفرد ومعاملته لأعضاء الأسرة البشرية. ولعلَّ من أعمق البحوث التي عرضت لهذا الجانب من الكرامة الإنسانية ما كتبه عباس محمود العقاد في كتابه "الإنسان في القرآن"، حيث يقول: "إن مكان الإنسان في القرآن الكريم، هو أشرف مكان له في ميزان العقيدة، وفي ميزان الفكر، وفي ميزان الخليقة التي تُوزَن به طبائع الكائن بين عامة الكائنات، هو الكائن المكلَّف، وهو أصوب في التعريف من قول القائلين (الكائن الناطق) وأشرف في التقدير".

إنَّ المسؤولية والحرية ترتبطان في المنظور الإسلامي بالكرامة الإنسانية ارتباطاً وثيقاً؛ فالله تعالى الذي كرَّم بني آدم، هو الذي - سبحانه - جعل الإنسان مسؤولاً عن عمله، فرداً وجماعة، لا يؤخذ واحداً بوزر واحد، ولا أمة بوزر أمة؛ (كُلُّ أُمَّرٍئٍ بِإِمَّا كَسَبٍ رَهِيْنٍ) (الطور/ 21)، (لَا يَكْفُرُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا) (البقرة/ 286)، (وَأَنْ لَّيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى) (النجم/ 39)، (فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ * وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ) (الزلزلة/ 7-8)، (وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى) (الأنعام/ 164). فهي إذن، كرامة إنسانية مسؤولة تنبع من إحساس المرء بوجوده الحر، وبيداتيته المتفردة، تترتب عليها تبعات، إن نهض بها صاحبها على النحو الذي يُرضي الله أولاً ثم يُرضي ضميره، كان منسجماً مع كرامته، مستمتعاً بها، موفقاً لها حقاً من المراعاة والاعتبار، ومن الحفاظ والصون.

لقد جعلت المبادئ الإسلامية الإنسان سيِّد نفسه في كنف عبوديته، فهو مخلوق مكرَّم، استخلفه الله في الأرض لتعميرها، وليعبد الله بأنواع الطاعات والعبادات التي لا تعد ولا تحصى، فالإنسان المؤمن يعبد الله في كل الأحوال، بعقله وضميره، وبقلبه وجوارحه. ومن عبوديته، ومن طاعته للذات الإلهية وعبادته لها، يستمدُّ الإنسان إحساسه العميق بالكرامة، وشعوره بالاعتزاز والارتياح والرضا والطمأنينة لفعله الخيرات، وإقباله على الطاعات.

وهذا الشعور هو نعمةٌ تغمر قلب الإنسان المؤمن، وتفيض بها روحه، وتجيئ بها جوارحه كلَّها.

إنَّ الإسلام كرَّم الإنسان حين جعل شرف الإنسانية يتمثَّل أولاً وآخراً في صلتها بالله، واستمدادها

منه، وتقيدها بشرائعه ووصاياه. والحرية الحقيقية - التي هي جوهر الكرامة الإنسانية - ليست في حق الإنسان أن يتدنس إذا شاء ويرتفع إذا شاء، بل الحرية أن يخضع لقيود الكمال، وأن يتصرف داخل نطاقها وحده. وقيود الكمال هذه تضعنا على الطريق إلى الكمال، طريق الكمال، والتصفية، والتحول عن مواطن الغفلة والركود، إلى مواطن الذكر والحرية، والسير في ميادين النفوس سيراً وجهته الكمال، وعدته صالح الأخلاق والأعمال، وشاراته التوبة والرغبة إلى الكمال، والورع والعفة والقناعة والصبر والشكر والخوف والرجاء والتوكل والحب.

لقد جعل الإسلام التقوى أعلى درجات التكريم والإكرام للإنسان (إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتَّقَاهُ) (الحجرات/ 13)، ولذلك فكرامة الإنسان هي في تقربه إلى الكمال، باتباع تعاليم دينه ووصاياه، وباجتناب نواهيها وما حرّمه على عباده. وهذا السلوك المستقيم السوي هو عين التقوى، إذ ليست التقوى شيئاً مجرداً، ولكنها إيمان وعمل وسلوك وممارسة وإقبال على فعل الطاعات والحسنات. وكلما أوغل الإنسان في هذه الطريق السالكة المؤدية إلى رضا الكمال على عبده، كان أوفر كرامة، تفيض عليه، وتغمره، وتملاً نفسه رضا وسكينة وطمأنينة وثقة في الكمال.

وللشيخ محمود شلتوت تعريفٌ لطيفٌ ويصيرٌ في تفسيره حيث يقول: "أمّا تقوى الكمال تعالى، فهي ترفع في معناها العالم إلى اتقاء الإنسان كل ما يضره في نفسه وفي جنسه، وما يحول بينه وبين المقاصد الشريفة والكمال الممكن في الدنيا والآخرة. والتقوى ليست خاصة بنوع من الطاعات، ولا بشيء من المظاهر، وإنما هي كما قلنا، اتقاء الإنسان كل ما يضره في نفسه وفي جنسه، وما يحول بينه وبين الكمال الممكن. ومن ثمرات التقوى حصول الفرقان - ما يفرق به المرء بين الخير والشر والضر والنافع في هذه الحياة -، فالعلم الصحيح، والقوّة، والعمل النافع، والخلق الكريم، وما إلى ذلك من آثار التقوى، هي الشجرة والفرقان هو الثمرة".

وبما أن الإسلام هو دين الحياة، فإنّه يدعو الإنسان إلى أن يمارس هذه الحياة بالحضور والمساهمة والإنتاج، وإلى أن يكون هذا الحضور متمسكاً بالعزّة والكرامة والشرف، مما لا يمكن أن يتحقق إلا بالحرية التي هي في طبيعة حقوق الإنسان، والتي تُعدّ في الرؤية الإسلامية، قيمةً كبرى، سواء بالنسبة للفرد أو الجماعة.

إنّ أعظم تكريم للإنسان، في المنظور الإسلامي، أن هداه الكمال إلى التوحيد. ومن التوحيد دعوة الإسلام إلى الكرامة وإلى الحرية. والتوحيد هو تحرير الإنسان من الشرك، ومما يقذفه الشرك في قلب المرء من شعور بالهزيمة والسقوط؛ سقوط القيمة والهمة والاعتبار، وسقوط الشخصية المعنوية والكرامة الإنسانية.

ولما كانت كرامة الإنسان في التوحيد، وكان التوحيد هو تحرير الإنسان من الشرك بكل معانيه ودلالاته، فإنّ الكرامة الإنسانية تتجلّى أسطع وأقوى ما يكون التجلّي في:

- 1- مقاومة عبادة الأصنام والأوثان، (بكل أشكالها وأنواعها).
- 2- محاربة الخضوع للأهواء والنزوات، (بجميع أصنافها وأضرابها).
- 3- منع الانسياق لطغيان المال، (على أي وجه من الوجوه).
- 4- الوقوف ضد استعباد الإنسان للإنسان (أيّ ما كانت الأسباب والدواعي).

المصدر: كتاب الحوار من أجل التعايش